من خصائص تاريخ العثمانيين وحضارتهم

د. محمد عبد اللطيف البحراوي

لتاريخ الدولة العثمانية أهمية خاصة، لأنها الدولة الإسلامية الكبرى في التاريخ الحديث.

والدولة العثمانية تجربة طويلة، هي عبارة عن فتوحات إسلامية في أوربا، ومحاولة لتوحيد العالم الإسلامي، كما أنها تجربة فريدة لتطبيق النظم الإسلامية في العصور الحديثة.

وقد أكسب الإسلام الدولة القوة والتماسك، حتى في عصر ضعفها، وترتب على ذلك أن عاشت الدولة قروناً عديدة تصنع التاريخ الإسلامي الحديث، وتؤثر في تاريخ أوربا، بل وتاريخ العالم تأثيراً مباشراً.

ونظراً لأن ضعف الدولة ثم سقوطها قد اقترن بتغلغل الاستعمار الأوربي في العالم العربي، إلى جانب الغزو الفكري، ثم سقوط أجزاء من العالم العربي فريسة للاستعمار الأوربي، فقد كُتِبَ عن الدولة الكثير، وجاء أكثر ما كُتِبَ بعيداً عن الصواب بقصد أو بدون قصد، بروح العداء للإسلام، أو بسبب الجهل به، وكان الجهل باللغة التركية، وما يزال، سبباً في عدم وضوح الرؤية لدى الكثيرين، ولذلك يحتاج تاريخ الدولة العثمانية إلى مجهود خاص، لا تصلح معه القراءة العضوية أو الدراسة التقليدية والنقل التقليدي، والتسليم بكل ما في الكتب والمراجع من أحكام وآراء. وأول ما يجب أن نطرحه جانباً هي تلك

الطريقة التقليدية المدرسية، التي تقوم على الترتيب الزمني للسلاطين واستغراق في التواريخ والسنين، وإنما ينبغي أن يسير تاريخ الدولة كموضوع يتطور، وفكرة تنمو وتتغير، ومن الأفضل أن يحدث التركيز منذ البداية على النقاط التي ستكون أساس مشكلات العصر الثاني والأخير للدولة، وأن يكون الاهتمام بالاصطلاحات التركية، ومحاولة نهجها فهماً لغوياً، لأنها هي التي توضِّح الأنظمة العثمانية وتحدِّد مدلولها التاريخي.

لقد جعل تاريخ الدولة العثمانية التاريخ والجغرافية والسياسة والعلاقات الدولية شيئاً واحداً، لأن الدولة العثمانية ليست كغيرها من الدول المتجانسة، ولكنها اشتملت على أجناس وديانات ومذاهب شتى، ولذلك فإنه لا يمكن الاستغناء عن التطعيم الجغرافي في أكثر موضوعات التاريخ العثماني، وقد تكون نظرة واحدة إلى خريطة المضايق مثلاً تغني عن كلام كثير لإيضاح أهمية هذه المضايق.

وتاريخ هذه الدولة يحتّم على من يتقدم نحوه أن يكتشف طبيعة الدولة، تلك الطبيعة التي شكلتها عناصر أساسية منها أن وسط آسيا كان طوال العصور الوسطى ومطلع العصر الحديث أشبه بخزَّان يفيض باستمرار وتنبعث منه هجرات بشرية في شكل موجات متلاحقة، وهذه المنطقة هي الموطن الأول لجنس من الأجناس هم الترك، عاش هذا الجنس حياة قبلية رعوية، قوامها التنقل والرعي والغزو والحركة في إتجاهات مختلفة، لكن هذه الحركة في أساسها وعموميتها إتجهت إلى الغرب، بسبب قسوة المناخ في الشمال، ووجود دولة قوية في الصين⁽¹⁾.

وطبيعة التحرك غربا هذه هي التي لازمت الأتراك العثمانيين، حتى بعد استقرارهم في غربي الأناضول، ولذلك كان هدفهم الأساسي هو استمرار الحركة غرباً، أي في أوربا، وليس جنوباً في عالم إسلامي (قديم)، ومن هذا الموطن الأصلي اكتسب الترك صفاتهم الأصلية، وسماهم علماء الجغرافية الجنسية الطورانيين نسبة إلى مرتفعات طوران.

وهؤلاء الأتراك إبّان تحركاتهم غرباً إعتنقوا الإسلام على المذهب السني، وهو حادث على أعظم جانب من الأهمية، ذلك لأن مذهب السنة الرصين الواضح قد اتفق وطبيعة الأتراك، وهكذا تكرر في التاريخ تولّد تيار لا يقهر، بسبب إعتناق قبائل رعوية الأصل الإسلام على المذهب السني، وترتب على ذلك أيضاً أن تولدت روح جهادية ملأت تاريخ الدولة العثمانية، ومن ثم أنصف كثير من المؤرخين الأوربيين الذين بدأوا مؤلفاتهم بالبحث عن البنية الأساسية للدولة، أي اكتشاف طبيعتها⁽²⁾.

ويلاحظ أننا نستخدم عبارة: الدولة العثمانية، ولا نستخدم العبارة التي درج مؤرخو

الغرب على استخدامها، وقلّدهم في ذلك بعض مؤرخينا، وهي: الإمبراطورية العثمانية، لأن هذه العبارة الأخيرة خطأ من الناحية العلمية والتاريخية، لأن الدولة العثمانية لم تكن إمبراطورية، وهذه التسمية تطلق على الدول الاستعمارية في العصرين القديم والحديث، مثل الإمبراطورية الرومانية، والإمبراطوريات الاستعمارية الأخرى، التي قامت إبّان عصر التوسع والكشف والاستعمار.

وقد غرق بعض المؤرخين إلى آذانهم في الخطأ حين وصفوا ضم الدولة العثمانية للمشرق العربي بأنه استعمار، بينما كانت الدولة تنشىء حزاماً من الأمن حول الأراضي المقدسة الإسلامية، وتدخل في صراع هائل مع البرتغاليين في البحار العربية للدفاع عن شبه الجزيرة العربية ضد الاستعمار، وكان ضم المشرق العربي هو الذي أتاح الفرصة لنموه تاريخياً في ظل دولة إسلامية كبرى، وليس في ظل استعمار أوربي مبكّر في مطلع العصر الحديث، خطط البرتغاليون فيه لاحتلال الأماكن المقدسة الإسلامية والتنازل عنها فيما بعد نظير تخلي المسلمين عن الأماكن المقدسة المسيحية في فلسطين، والرد على هذا الخطأ أيضاً من واقع النظم العثمانية ذاتها، إذ كانت الدولة تترك جميع الأنشطة الاقتصادية في الأقاليم المفتوحة في أيدي أهلها، الشيء الذي لا يمكن أن ينطبق عليه معنى الاستعمار، وليس يُدرى كيف خفيت الروح الجهادية في الدولة العثمانية على هؤلاء، تلك الروح التي ملأت الأجواء والأسماع على امتداد تاريخ الدولة(٣).

أعطى عثمان اسمه إلى قبيلته، ومن ثم نسبت الإمارة والدولة إليه، ونشأت أسرة قوية فتية، امتلأت بالإخلاص والحماس للإسلام، واستمر لهذه الأسرة الاسم والحق الموروث والوجود السياسي، وأصبحت هي مركز التجمع ومبعث الجهاد والمد والفتح، وقدّمت هذه الأسرة العظيمة عدداً من السلاطين العظام والحكام القادرين، وتداخل الولاء للدولة الإسلامية مع طاعة هؤلاء السلاطين من آل عثمان، حتى أن الاتحاديين في أواخر أيام الدولة حين حاولوا الفصل بين هذا وذاك سقطت الدولة برمتها(٤).

من ثم يجب أن تفرق بين مدلولات ثلاثة اختلطت في أذهان الكثيرين وهي: أتراك، وأتراك عثمانيون، وعثمانيون، فاللفظ الأول تسمية جغرافية، والعبارة الثانية جغرافية تاريخية، أما اللفظ الأخير فله مدلوله التاريخي فحسب، ومعناه كل من كان في الدولة العثمانية أيًّاكان جنسه أو دينه أو مذهبه أو لغته، في كل ممتلكات الدولة في القارات الثلاثة(٥).

إن الدولة العثمانية لم تتخذ أدرنة عاصمة لها في الفترة ما بين إتخاذ بروسة عاصمة في أيام أورخـان، وفتح القسطنطينية وإتخاذها عاصمة

فيما بعد، وليس من المعقول أن تتخذ الدولة أدرنة عاصمة في الفترة التي خططت ألدولة فيها للإستدارة حول القسطنطينية، وتوجيه الضربة النهائية للبيزنطيين فيها من الخلف أي من القرب، وبمعنى آخر في الوقت الذي كانت قوة الدولة فيه هي القوة البرية بالدرجة الأولى، وكل ما حدث هو أن الدولة أقامت في أدرنة ما يمكن أن نصفه بأنه إدارات مجمعة، وحتى بعد فتح القسطنطينية، فقد كان بعض السلاطين يرجون الإقامة في أدرنة أكثر من إقامتهم في العاصمة استانبول، وفي هذه الحالة كان يصحب السلطان الديوان ودوائر المالية وروزنامة جي أول، بينما يبقى في العاصمة وكيل روزنامجي، ومع هذا فنحن لا نستطيع القول إن العاصمة قد انتقلت في مثل هذه الأيام من استانبول إلى أدرنة(٦).

ما معنى إتخاذ القسطنطينية عاصمة للدولة العثمانية؟

إن نقل العاصمة من بروسة إلى استانبول معناه أن الدولة أصبحت أناضولية بلقانية، أو أسيوية أوربية، لكن مركز الثقل للدولة لم يعد في آسيا بل انتقل إلى الأناضول، فوجود عاصمة الدولة أو انتقالها له دلالتها ومدلوله، ونحن إذا قلنا بعد ذلك أن الخلافة الإسلامية قد انتقلت إلى آل عثمان بعد ضم مصر، فليس معنى ذلك أن نضع الخلافة العثمانية في صف الخلافة الراشدة، ولا في صف الخلافة الأموية أو العباسية، لأن السلطان الخليفة قد ورث فيما ورثه تقاليد بيزنطية، ومع هذا فإنه يبدو واضحاً أن الأتراك العثمانيين لم يحملوا هذا اللقب صراحة ولم يتردد في الوثائق العثمانية إلا نادراً، ولم يستخدم ذلك اللقب صراحة ودوماً إلا في أيام السلطان عبد الحميد الثاني إبّان أخذه بحركة الجامعة الإسلامية، ولعل هذا كان إعترافاً من سلاطين آل عثمان أنه على الرغم من عظمة الدولة وجهادها في سبيل الإسلام، فإنهم ليسوا عرباً جنساً ولا لساناً، ومن ثم تبقى الخلافة للعرب دون منازع، إكتفاء بلقب: حامي الحرمين الشريفين، الذي أعلنه السلطان سليم الأول عقب دخوله مصر وانضمام الحجاز، كأنه كان إعلاناً موجهاً إلى أوربا المسيحية وطلائع الاستعمار الأوربي على الحدود الجنوبية للعالم الإسلامي.

وهذا الموضوع ينبغي أن نربطه بتاريخ عواصم الخلافة الإسلامية في عصورها المتوالية، وأن نستكشف أسباب ونتائج إنتقال عاصمة الخلافة إلى دمشق وبغداد، بعد المدينة المنورة، وقبل استانبول، ومدلولات ذلك والمؤثرات التي صاحبت هذه التطورات التاريخية في نظم الحكم والحضارة، وأن نفسِّر معنى نقل العاصمة من استانبول إلى أنقرة بعد سقوط الدولة في ضوء ما ذكر عن بنية الدولة وطبيعتها وهدفها الأساسي.

إن الدولة العثمانية ليست دولة عريقة، بمعنى أنها لا تمتد بجذورها في التاريخ الوسيط والقديم، بل هي قوة هائلة بزغت على مسرح التاريخ في أواخر العصر الوسيط ومطلع العصر الحديث، ومن ثم لم تكن لها نظم قائمة عند قيام الدولة، وإنما نشأت نظمها موزعة على تاريخها الطويل، وتكونت النظم العثمانية مع تكوين الدولة ونموها، ومن ثم ينبغي ألا تؤخذ هذه النظم منفصلة عن التكوين التاريخي للدولة، ولا اعتبارها كمًّا واحداً، وإنما توزع الأنظمة مرتبطة بالتطورات التاريخية التي أدت إليها، مثال ذلك نشأة يكي جرى (الإنكشارية)، ولا بد أن يسبق الكلام عنها كنظام، التفسير اللغوي في اللغة التركية لهذه العبارة.

فما معنى جيش جديد؟

إن القدم والجدة مسألة نسبية، فلماذا كانت يكي جرى جيشاً جديداً، لا بد أنه سبقها نظام حربي آخر أقدم منها، وهو التجمع الاختياري، وهذه يكي جرى، سوف تصبح هي الأخرى نظاماً قديماً في عصر السلطان محمود الثاني حين أنشأ الفرق الجديدة تحت إسم: نظام جديد، والعساكر المنصورة المحمدية(٦).

وهذا الموضوع ترتبط به نقاط في غاية الأهمية في تاريخ العثمانيين ونظمهم، أولها أن أورخان خشي إن هو استمر في الجهاد بالفئة التركية العثمانية القليلة العدد أن تفنى هذه المجموعة، وليس من المقبول التجاؤه إلى الجند المرتزقة، بعد أن رأى فساد ذلك الاتجاه في الدولة البيزنطية، كما أنه ليس من المقبول أن يجاهد العثمانيون بجند مرتزقة، ومن ثم لجأ إلى يكى جرى أو جيش جديد.

أخذ أورخان يشجع تحويل الرعايا المسيحيين إلى رعايا عثمانيين مسلمين، ولم يتّبع في ذلك العنف والإكراه، ولكنه اتّبع الترغيب والجذب، وكانت الوظائف في الدولة تقتصر على المسلمين، وأهم مصادر هؤلاء هم أسرى الحرب، نتيجة الجهاد البحري والجهاد البري على حدود العالم المسيحي، ثم ما كانت تقدمه العائلات المسيحية طواعية من أبنائهم، وليس صحيحاً أن هؤلاء الغلمان كانوا يقدّمون كجزية أو ضريبة كما يدّعي البعض، ولا توجد وثيقة واحدة تؤيد هذا الزعم، ويؤكد في كتابه:
Creasy Hist of the Ottoman Turks
في معرض كلامه عن الإنكشارية
بأنه لم يرد على الإطلاق ما يدل على إكراه ـ للأسر المسيحية، بل إن هذه الأسر نفسها كانت تتنافس في تقديم أبنائهم، ونحن نعلل هذا بإعجاب أوربا بالإنكشارية كنوع آخر من الفروسية فاق فروسية أوربا في العصر الوسيط، وطمعاً في أن تنفتح أبواب وظائف الدولة أمام أبنائهم، كما أن نظام أهل الذمة الذي طبقته الدولة كجزء من نظمها الإسلامية قد انبهرت به

أوربا في وقت انعدمت فيه الحرية الدينية في أوربا ذاتها أو كادت، بل إن إقبال الأسر المسيحية على ذلك هو الذي دفع بالدولة إلى أن تشترط أن يكون الغلام هو الابن الخامس إلى العاشر في الأسرة الواحدة(٧).

وثالث هذه النقاط الهامة هو إرتباط هذه القوة الجديدة المحاربة منذ بداية نشأتها بهيئة العلماء في الدولة العثمانية حين عهد أورخان إلى حاجي بكتاشي أشهر علماء عصره وأكثرهم سلطة روحية في الدولة بمباركة هؤلاء الجند، ووضع أصول تربيتهم تربية إسلامية صحيحة، فاستقبلهم هذا الشيخ وباركهم وأعطى كل واحد منهم قطعة من عباءته، ثبّتها كل منهم في غطاء رأسه تبركاً(٨).

من هنا إرتبطت الإنكشارية منذ نشأتها بنفوذ روحي مصدره الدراويش والعلماء، وهذا الإرتباط كانت له أعظم النتائج في عصر قوة الدولة، كما كانت له نتائج أخرى في عصر ضعف الدولة.

وقياساً على كلامنا عن يكي جرى، كيف نؤرخ للبحرية العثمانية؟

يبدأ تحول الدولة لأن تكون دولة بحرية، بالإضافة إلى كونها قوة برية منذ استيلاء العثمانيين على القسطنطينية، إذ أنهم بهذا الفتح ورثوا البيزنطيين فيما خلفوه من ترسانات صناعة السفن، وكان تقدمهم في البلقان وشمال شرق أوربا وفي جزر البحر المتوسط معناه توافر مقومات صناعة السفن حيث تتوفر الأخشاب من الغابات والمعادن اللازمة لهذه الصناعة، وحيث ضمت الدولة مناطق هي خير مثل للبيئة البحرية، وأدت علامة السلم الدائم بين الدولة العثمانية وفرنسا إلى إمكانية إستيراد الأقمشة لصناعة الأشرعة، وهكذا يستمر نمو البحرية العثمانية وتطورها، وتصل إلى أوج ازدهارها على أيدي مجاهدي البحر في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وتعتبر معركة ليبانتو هي ختام المطاف لعصر ازدهار البحرية العثمانية، وإن كان العثمانيون قد تمكنوا بعدها وفي خلال عام واحد من إنزال أسطول جديد مساو لذلك الذي دمر في ليبانتو.

وهذا الموضوع الذي هو تاريخ البحرية العثمانية يتوازى أو يتداخل مع موضوعات أخرى يصعب فصل أحدها عن مجموعة هذه الموضوعات وهي: إنضمام المغرب العربي للدولة العثمانية، وقصة حياة خير الدين بربروسا، وعصر بيلربك في الجزائر وشمالي إفريقية، والجهاد البحري في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وجهود العثمانيين لاسترداد الأندلس، حيث يتراءى لمؤرخ الدولة العثمانية أن أيًا من هذه العناوين يصلح أن تندرج تحت هذه النقاط جميعاً(٩).

لماذا يصف البعض الدولة العثمانية بأنها كانت دولة عسكرية؟

إن صورة الدولة الحقيقية هي صورة دولة الجهاد والغزو والفتح ومواجهة الصليبية في ميادين متعددة، ولذلك قامت الدولة على أسس ثلاثة هي: السلطان والشيخ والجندي، وهذه هي صورة الدولة المسلمة والأمة الإسلامية، حتى بدا أن كل شيء في الدولة قد أُعدَّ ونُظِّم لهذا الغرض وحده.

لم تعرف الدولة العثمانية الأرستقراطية، أو فكرة سيادة جزء من الأمة على جزء آخر، كما كان الحال في أوربا، وهذا يرجع لتأثير الإسلام الذي ضغط السلطة للسلطان باعتباره وليًّا للأمر، ونشر روح المساواة بين المسلمين جميعاً، وعلى ذلك لم يوجد في الدولة العثمانية نبلاء أو طبقية، فإن كل المسلمين متساوون في الحقوق والواجبات، ولم يوجد في الدولة طبقة للعبيد بمفهومها السياسي، ومن ثم لم توجد طبقة نبلاء، وكان في الدولة إقطاع في الأرض الزراعية، وهي الإخاذات أو زعامت وتيمار، التي كانت تمنح للفرسان، سباهيلر، لكنه لا يمكن أن يوضع ذلك النظام في صف الإقطاع الأوربي أو نظام النبلاء(١٠).

إكتسب العلماء نفوذاً كبيراً بسبب طبيعة مراكزهم الدينية والتعليمية والقضائية، وكان المفتي، الذي هو رأس العلماء، والذي سُمّي مؤخراً شيخ الإسلام، في المرتبة التالية في الدولة بعد السلطان، وكقاعدة عامة فإنه كان للعثمانيين جميعاً حق الإنتظام في هيئة العلماء؛ بمعنى أنها لم تكن طبقة مغلقة، وربما أوحت بعض الألقاب في هيئة العلماء للبعض ما زعموه من أن الدولة كانت عسكرية، مثل كلمة ملازم، أول رتبة في سلك القضاء(١١).

كذلك كان قاضي عسكر روملِّلي، وكان على كل ما يتصل باختصاصات هيئة العلماء في أوربا، وقاضي عسكر أناطول، وكان على كل ما يتصل بذلك في آسيا، وكانا يسميان أحياناً صدر روملِّلي وصدر أناطول، ثم يليهما قضاة المدن الكبرى، وليس من الصواب ما أعتقده البعض من أن سلطة السلطان لم تكن محدودة، وأن علاقة السلطان بوزرائه كانت علاقة السيد بالعبيد؛ فالدولة تطبق النظم الإسلامية وتستقي تشريعاتها من دستور المسلمين وهو القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، والمفتي ومن ورائه هيئة العلماء بقسميها: الأئمة والقضاة، لهم التوجيه والإفتاء والرقابة، فالدولة كما قدمنا تجربة طويلة فريدة لتطبيق النظم الإسلامية في الأزمنة الحديثة.

كانت مداخيل الدولة العثمانية تجبى بالسنة الشمسية، بينما مصاريف الدولة، وفي مقدمتها رواتب الجند تدفع وفقاً للسنة القمرية، ومعنى ذلك وجود فرق أحد عشر يوماً تمثل عجزاً كان

يتراكم على مر السنين، أي أن الدولة تحتاج إلى ثلاث وثلاثين سنة لتصحيح ماليتها وتقويمها المالي، ففي أعقاب السنة الثانية والثلاثين توجد سنة ضائعة أو سنة سويش كما كانوا يسمونها، وبمعنى أوضح وجود ٣٢ ميزانية دخل مقابل ٣٣ ميزانية صرف في كل ٣٣ سنة هجرية، أي أنه كانت توجد نفقات سنة ليس لها مقابل ولا يوجد لها رصيد.

وكانت مهمة روزنامجه جي أول والدفتردار هي التحايل لمواجهة هذا العجز المتكرر في تاريخ الدولة، إما بإحداث تكافؤ في المعدل اليومي للدخل والمنصرف، أو تأخير الدفع حتى يوافق الدخل(١٢).

ولم يكن من الممكن الأخذ بالنظام الشمسي في النفقات في دولة إسلامية كبرى، كما أن الضرورات الاقتصادية لا تجعل من الممكن أيضاً الأخذ بالنظام الهجري في الجباية، لأن دخل الرعايا مرتبط بالمواسم الزراعية والتجارية، وبالتالي فإن دخل الدولة مرتبط بدخل الرعايا.

ومن هنا اضطرب نظام دفع رواتب الجند، العلوفات أو المواجب، بالإضافة إلى حروب الدولة المستمرة في ميادين متعددة في البر والبحر، ونتج عن ذلك كله العجز في كثير من الأحيان عن دفع رواتب الجند، وتخفيض العملة أو زيادة الضرائب، وتلك كانت هي علة العلل في ثورات الجند واضطراب أحوال الدولة، وزادت الحالة سوءاً حين أخذت الدولة تفقد أجزاء من ممتلكاتها في البلقان، وبالتالي فقد الفرسان، سباهيلر، إخاذاتهم، زعامت وتيمار، وفي آسيا كذلك بسبب ما كان يحدث فيها من فتن(١٣).

ولعل هذا العرض لأهم خصائص تاريخ العثمانيين، وعلى الأخص في النواحي الاقتصادية للدولة العثمانية يضع أيدينا على أهمية الربط بين تاريخ الولايات والحالة في عاصمة الدولة في كل فترات تاريخ الدولة العثمانية، إذ لا ينبغي الفصل بين التطورات التاريخية في ولاية ما وبين ما كان يجري في عاصمة الدولة، وعلى الأخص الولايات العربية النائية، كذلك يجب تقدير ظروف الدولة من حيث صعوبة الاتصال بين عاصمة الدولة وهذه الولايات في الفترة التي سبقت حفر قناة السويس واستخدام البرق، والاختلافات الجغرافية العميقة بين الأناضول والصحارى، فلما خفّت تلك العقبات برزت الهجمة الاستعمارية الإنجليزية الشرسة.

من هنا كان الحرص فيما أنجز من وسائل علمية تاريخية للحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه في التاريخ الإسلامي الحديث في موضوعات تتعلق بشبه الجزيرة العربية على أن تحتوي الخطة على فصل تحت عنوان: الحالة في الأستانة، في نفس المدى الزمني لموضوع

الرسالة، وإلاّ فكيف نتصور معالجة موضوع من هذه الموضوعات منفصلاً عن عاصمة الدولة ذاتها؟

ويصف لنا نعيما في يومياته اضطرابات الفرسان في ربيع الأول ٩٢٩هـ، حين أعيد سياوس باشا صدراً أعظم للمرة الثالثة، ولم تكن توجد في الخزانة نقود لدفع مرتبات الفرسان، ولذلك هاجم الفرسان الديوان وطالبوا برأس الدفتردار، ولماكان هذا مقرباً من السلطان، فقد بادر السلطان محمد خان الثالث بإعطائهم مرتباتهم من خزائنه الخاصة، ومع هذا رفض سباهيلر تسلم مرتباتهم وأصروا على المطالبة برأس الدفتردار، وتدخل قضاة العسكر، وأوضحوا للثائرين أن هذا مناف للشريعة ما دامت نقودهم قد قدمت إليهم، فما كان من الثائرين إلا أن أمطروهم بوابل من الحجارة، وتجمع عدد من الأسياد، من أهل البيت، وسألوا العصاة كيف يطالبون بدم شخص هو منهم ومن أهل البيت، وأمطرهم الثائرون بوابل من الحجارة أيضاً، ولما رأى الدفتردار فشل كل المحاولات همّ أن يخرج إليهم بنفسه وأن يلق مصيره، ولفّ رأسه بقطعة قماش خضراء كما كان يفعل الأسياد، فأثار هذا الموقف أعضاء الديوان وصاح بوستاني زاده أحد قضاة عسكر متهماً الديوان بالخروج عن الشريعة بتضحيته بالدفتردار، ووصف هذا التصرف بالجنون مما جعل أعضاء الديوان الآخرين وغيرهم من خدم الديوان أن يمسك كل منهم بما وصلت إليه يده، وتقدم هؤلاء يعاونهم نفر من الإنكشارية لمطاردة الثائرين (١٤).

لكن هذا المؤرخ المعاصر يتساءل، ونحن نتساءل معه، كيف كان يتطور الأمر، لو أن الإنكشارية إنضمت في هذا الموقف للفرسان الثائرين؟

وتطبيقاً لخاصية الإتساع في تاريخ العثمانيين، فإنه ينبغي أن نربط حالة الدولة الإقتصادية في ممتلكاتها الأوربية في عصر سليمان الكبير، موازياً لعصر الإمبراطور شارل الخامس، في الإمبراطورية الرومانية (المقدسة).

أدت رحلات كولمبوس إلى نشاط الإسبان في مجال الكشف والاستعمار وتكوين إمبراطورية إسبانيا الاستعمارية في العالم الجديد، وكان لوجود مناجم الفضة جنوبي بحيرة تيتيكاكا Titicaca أكبر الأثر في توجيه أنظارهم إلى منابع نهر أمزون، فأسسوا مستعمرة فيما يسمى الآن جمهورية برغواي، واكتشفوا الفضة أيضاً في جبل بوتوس ، ومن ثم أخذت كميات كبيرة من الفضة تتدفق على أوربا، وكان هذا المعدن النفيس قد شح فيها بسبب الحاجة المستمرة إليه مدة طويلة من أجل استيراد المتاجر من الشرق لتدفع ثمناً لما كان يشترى من الأسواق الشرقية، وكانت

الحياة الاقتصادية قد تعطلت أو كادت بسبب قلة النقد الفضي، وكان هذا من أهم الأسباب التي جعلت أوربا تستميت وراء كشف طرق جديدة للتجارة، وتوصل الإسبان إلى طريقة لاستخلاص الفضة من المواد الخام.

وفي أول الأمر حرصت إسبانيا على الاحتفاظ بهذا المعدن لنفسها داخل بلادها، فحرمت تصدير سبائك الفضة، ولكن سرعان ما عجزت المصانع الإسبانية عن سد حاجة البلاد من الأسلحة والسلع واضطرت إسبانيا لشراء حاجتها من أنحاء أوربا(١٥).

ويشبه المؤرخون إسبانيا في ذلك الوقت بأنها كانت أشبه بقناة تجري فيها الفضة إلى بقية أوربا، وأحدث تدفق الفضة ثورة في الأسعار، وارتفعت تكاليف الحياة، وامتدَّ ذلك إلى كل أنحاء أوربا بما فيها جزئها الشرقي، وهكذا أدى تحول التجارة إلى كساد إقتصادي في الجزء العربي من الدولة العثمانية، من غير أن يكون للعثمانيين يد في هذا الكساد، بينما أدت ثورة الأسعار إلى مثل ذلك في ممتلكاتهم الأوربية، وبينما كان العثمانيون يكتسحون شرقي أوربا بفتوحاتهم، فقد كان غرب أوربا قد أخذ يدخل في فترة نمو وازدهار إقتصادي، وبينما كانت الدولة تحاول تثبيت العملة وإعلانها ومنع الغش ونقص الوزن وتجنب إنقاص قيمة العملة، وخاصة في سنوات الازدلاف، فقد كانت الدولة في ممتلكاتها الأوربية عرضة لتسريب الفضة (العاطلة) والذهب (العاطل) كغزو مستتر للدولة لتدمير إقتصادها.

ويرتبط بهذا الموضوع، موضوع آخر على جانب كبير من الأهمية، وهو دفاع العثمانيين المجيد عن طرابلس في وجه مشروعات الإسبان الصليبية في غربي البحر المتوسط وشمال إفريقية.

إحتلّت إسبانيا في ٩١٦ ـ ١٥١٠ وعمَّت مظاهر الفرح في أوربا خاصة سكان إيطاليا الجنوبية وصقلية ومالطة، ومعها مظاهر الخدمة في العالم الإسلامي، وراودت الإمبراطورية شارل الخامس فكرة غزو إفريقية والتوغل فيها من الشمال إلى الجنوب، ومن ثم دخلت طرابلس وإفريقية الشمالية في إطار السياسة الأوربية، ومع تقدم العثمانيين في البلقان، وصل الصراع بين الإسلام والمسيحية إلى أقصى حدّته، أو بعبارة أخرى بين الشرق والغرب، وأصبح شمال إفريقية هو هدف كل من يريد السيطرة على البحر المتوسط(١٦).

وباستيلاء الإسبان على طرابلس ومشاركة فرسان القديس يوحنا، أمكنهم تهديد جربه، لضمان استمرار سيطرة المسيحية على طرابلس، المدخل إلى قلب إفريقية، وعين نائب الملك الأسباني في صقلية نائباً له في طرابلس مدى الحياة، وكان فرسان القديس يوحنا قد انسحبوا من رودس حين دخلها السلطان سليمان الأول

٩٢٩ ـ ١٥٢٢ إلى إيطاليا، ثم أهداهم شارل الخامس مالطة نظير اشتراكهم في الحملات الإسبانية إلى طرابلس، وفي ٩٣٧ ـ ١٥٣٠ تنازل لهم الإمبراطور عن طرابلس التي ظلت تحت سيطرتهم عشرين سنة أخرى.

بدأت الدولة العثمانية خطتها لاستخلاص طرابلس منذ أن استنجد أهل تاجوراء بالسلطان سليمان الأول ٩٢٦هـ ـ ١٥٢٩، وتبعد تاجوراء عن طرابلس شرقاً بحوالي اثنا عشر ميلاً، وجاء مراد أغا الذي حول جربه وتاجوراء إلى قلعتين إسلاميتين وحفر الخنادق وبنى الأسوار والحصون، وجاء مرة أخرى يقود سفناً عثمانية محملة بالجند وفي هذه المرة أخذ المهدية، ومن تاجوراء والمهدية أغلق العثمانيون الطريق في وجه الإسبان والفرسان، وشددوا الحصار على طرابلس حتى سقطت في أيدي سنان باشا، وعين مراد أغا حاكماً عليها في ٩٥٩ ـ ١٥٥١، ومن ثم أخذ في إصلاح أحوال المدينة وبنى فيها حصوناً جديدة وأحاطها بالأبراج والخنادق، وشيد المسجد المعروف باسمه في تاجوراء وألحق به مدرسة وبئراً للسابلة على الطريق من طرابلس إلى تاجوراء.

وهذه الجهود الجهادية للعثمانيين هي التي حمت الممالك الإسلامية في إفريقية الوسطى من الخطر الصليبي وأعطتها الفرصة لنشر الإسلام في ربوع إفريقية⁽¹⁷⁾.

ولنا أن نتساءل هنا ماذا كان يحدث لو أن الإسبان استطاعوا التوغل في إفريقية من شمالها إلى وسطها في نفس الوقت الذي كان البرتغاليون فيه على اتصال بملك الحبشة أسناف سجد الأول Asnaf Sagad وميناس Minas أو سجد الثاني؟⁽¹⁸⁾.

لقد استغل العثمانيون الخلاف المذهبي بين الأحباش والبرتغاليين بذكاء شديد، تماماً كما استغلوا الإنقسام الكنسي في أوربا، وفي صراعهم ضد إسبانيا وشارل الخامس نجح العثمانيون في الإتصال باللوتريين الثائرين عليه في الأراضي الألمانية، حتى أنه قيل إن شارل الخامس فكر في أن يرتدّ عن الكاثوليكية ويضع نفسه على رأس الحركة اللوثرية ويجعل من نفسه قائداً وطنياً لألمانيا حتى يمكنه مواجهة تحدي العثمانيين، لكنه عاد ورأى أنه حتى لو قبلته المدن الألمانية والجامعات الألمانية، فإن معارضيه من الأمراء الألمان سوف يتخذون منه الجانب المضاد⁽¹⁹⁾.

خالف العثمانيون منطق التاريخ وقواعده بخوضهم الحروب في أكثر من ميدان، ولم يكن في أذهانهم أن يغلقوا ميداناً ليتفرغوا لميدان آخر، أو لميدان واحد، وكان الميدان الغربي، أو الميداني الأوربي، أو ميدان البلقان، هو أهم هذه الميادين، وهو أولها، ثم اضطر العثمانيون لفتح الميدان الجنوبي لمواجهة الاستعمار البرتغالي

والتهديد الصليبي في البحار العربية، وإقامة حزام الأمن حول الأراضي المقدسة الإسلامية، والعثمانيون هم أول من أخذ في الأزمنة الحديثة بنظرية الحزام الواقي، بينما استخدمتها الدول الأوروبية الاستعمارية إبّان التوسع الاستعماري، وشتان ما بين الطرفين.

وأقرب مثل على ذلك، حين أصبحت الهند أكبر سوق احتكارية للتوسع البريطاني في القرن التاسع عشر، ونشأت نظرية الهند البريطانية، بمعنى أنها اختلفت عن غيرها من المستعمرات الأخرى، وذلك بتحويلها إلى قاعدة بريطانية ونظام قاري يمتد من عدن إلى هونج كونج، ومن ثم لعبت الهند البريطانية دوراً في شئون جيرانها، باعتبارها قاعدة، وهذا هو معنى الهند الإمبراطورية، وترتب على ذلك اتباع بريطانيا سياسة تأمين الهند، وفسر الإنجليز نظريتهم بأن الهند ثمرة، أو هي لب المستعمرات، ويجب أن تحاط الثمرة بالقشرة الواقية، أو الحزام الواقي بمستعمرات أخرى، كما تحيط القشرة بالثمرة أو كما تحيط الأرض الفضاء بالمصنع أو المبنى.

وإذا نظرنا إلى الدولة العثمانية في أقصى اتساعها في النصف الثاني من القرن السادس عشر نظرة شاملة، تتكافأ مع سعة الدولة في القارات الثلاث، وحاولنا الإمساك بأطراف الموضوعات على مستوى أفقي، فسوف نجد أن الصليبية الاستعمارية، ومن تحالف معها في حينه، قد حاولت ضرب حزام استعماري، أو حصار إقتصادي حول هذه الدولة الإسلامية المتسعة، وأن الدولة بذلت جهداً خارقاً لتحطيم هذا الحزام.

فإلى جانب ما أشرنا إليه من جهودنا لاستخلاص طرابلس من براثن الإسبان والفرسان وتأمين وسط إفريقية، فقد كانت هناك جهود العثمانيين في البحار العربية لاسترداد التجارة العالمية وإحياء طرقها الأولى، وفي أثناء ذلك ترددت فكرة العثمانيين لشق قناة تصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر.

ومع هذا كانت خطة استراخان أو حملة استراخان، لحماية الطريق الذي يصل استراخان بالقرم من خطر موسكو، التي أخذت في ذلك الحين تهدد طريق الحج والتجارة عبر وسط آسيا، وإقامة قاعدة عثمانية فيها أسوة بقاعدة طرابلس في إفريقية وعدن في الجنوب، لكسر هذا الحزام الاقتصادي الصليبي الذي أحاط بالدولة، ومن ثم شق قناة تصل بين قولجا ودن عند نقطة تقارب النهرين، وبذلك يسهل الاتصال ما بين البحر الأسود وبحر قزوين، وبذلك يمكن إعتراض توسع موسكو جنوباً، ومهاجمة فارس من الشمال(٢٠).

إن العصر العثماني الأول، أو عصر قوة الدولة، هو ذلك العصر الذي طبّقت فيه النظم

الإسلامية تطبيقاً كاملاً، وخاصة فيما يتعلق بأهل الذمة. ويعتبر نهاية عصر سليمان الأول هو أوج المجد وأقصى المد.

مات ذلك السلطان أثناء الهجوم الثامن على فيَنَّا، وهو في سن السبعين، وهنا نتساءل، ويتساءل معنا مؤرخو أوربا، ماذاكان يحدث لو سقطت فيَنَّا في أيدي العثمانيين، ومن ورائها ألمانيا المنقسمة الممزقة بعد ظهور اللوثرية؟

وهنا أيضاً تلعب الجغرافية المناخية دورها، فقد وصل المد العثماني إلى قلب القارة الأوربية، بمعنى أن العثمانيين قد انتقلوا من شرق أوربا حيث تقل الأمطار أو تنعدم، إلى وسط أوربا حيث يكثر المطر نسبياً ويغطي الوحل ميادين القتال والحصار، واستعصى على العثمانيين تحريك مدفعيتهم الثقيلة، وبموت سليمان الكبير رفع العثمانيون الحصار عن فينا، واستقر الوضع على الدانوب، بعد أن ظل منطقة ملتهبة طوال أكثر من قرن من الزمان.

أما عصر الضعف والسقوط، فهو يمثل ذلك العصر الذي أخذت الدولة فيه تنحرف عن تطبيق هذه النظم، ويفصل بين العصرين فترة من التوقف، حاولت الدولة فيها أن تصلح من شأنها، وأن تجري حركة إصلاح تصله بها من شأنها، لتقويم الخلل الذي أخذ ينتشر في مكونات الدولة وأجهزتها، ولتقوي من نفسها حتى تستطيع مواصلة رسالتها التاريخية، مع الاقتباس من أوربا، بحيث لا تخرجها حركة الإصلاح عن أصولها الإسلامية، وفي ثنايا هذه الحركة، حركة الإصلاح، وقعت أحداث رهيبة تمثلت فيها مسمى بانقلابات استانبول.

أما العصر الثاني فهو يبدأ بفترة التنظيمات، مع بداية عهد السلطان عبد المجيد، حين أخذت الدول الأوربية تنتهز الأزمات الكبرى التي تمر بها الدولة لتضغط على السلطان لإصدار قرارات من شأنها إخراج الدولة عن أصولها الأولى، وأولى هذه الأزمات وأشدها، الأزمة التي تولَّدت بسبب حروب محمد علي في الشام ضد السلطان محمود الثاني، والتي كانت قد انتهت بأن فقدت الدولة جيشها وسلطانها وأسطولها، مما اضطر السلطان عبد المجيد، في بداية عهده، وتحت ضغط الدول الأوربية إلى إصدار خط شريف همايوني، أو منشور كلخانة، لأنه قرىء في قصر كلخانة، أي سراي الزهر(٢١).

وصدور هذا الخط يعتبر تغييراً في تاريخ الدولة العثمانية، لأنه يمثل بدء إصدار أوامر سلطانية لا تستند إلى حجة شرعية أو فتوى، ومعنى هذا أن هذا الخط قد مسّ التقاليد العثمانية مسًّا خطيراً.

أما المنشور الثاني الذي أطلق عليه تنظيمات خيرية، فهو ذلك الذي صدر في أعقاب حرب القرم، وهو في مجموعه عبارة عن تأكيد لما ورد في منشور كلخانة.

وهكذا كانت الدول الأوربية قد اتخذت مسألة الطوائف غير الإسلامية في الدولة ذريعة للتدخل في شئون الدولة العثمانية.

وتنتقل الدولة بعد ذلك إلى عصر عبدالحميد الثاني، أو عصر المشروطية الأولى والثانية، ثم إلى عصر الاتحاديين، وتلك هي المراحل المتتابعة التي تكون منها عصر الدولة الثاني، أو عصر الضعف والسقوط، أو عصر الإنحراف عن أصول الدولة وطبيعتها وقوام نشأتها.

ويتضح لنا مما ذكر من خصائص تاريخ العثمانيين وحضارتهم أهمية دراسة الدولة العثمانية وعرض تاريخها كفكرة أو موضوع واحد، نشأ وتطور ونما وتوقف، ثم أخذ في الضعف والسقوط نتيجة انفصال الدولة عن أسسها التي قامت عليها، وهكذا يجيء التاريخ العثماني كسلسلة متصلة الحلقات، وأسباب متصلة بنتائجها منذ قيام الدولة حتى انتهائها.

●●●

الهوامش:

(1) M. de Hammer, Traduite par Dockez: L'Empire Ottoman, T. 1, L. 1, p. 6-11.

(2) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe. Ch. 2, p. 35-67.

(3) Behman Sapolo: Osmanli Sultanler, P. 130-135.
Dan O'Sullivan: The Age of Discovery, p. 2, p. 15-22.

(4) De Hammer, T. 1, L. 2, p. 23-25, Pears, E.: Life of Abdul Hamid, Ch. 2,3.

(6) De Hammer, T. 1, L. 3, p. 44-46.
أحمد واصف: محاسن الآثار وحقائق الأخبار أو تاريخ واصف مجلد٢ ص٧٣ ـ ٧٧
Lylyer: The Government of the O.E. ... p. 39-41.

(٧) أحمد جواد: تاريخ عسكري عثماني ص٥٣ ـ ٦٤.

(٨) أحمد باسم: عثمانلي تاريخي. جـ١ ص ٤٥ ـ ٥٠.
Birge, J.: The Bektashi Order of Dervishes, p. 10-19.

(٩) مصطفى عبدالله (حاجي خليفة ـ كاتب جلبي): تحفة الكبار في أسفار البحار ص٦٤ ـ ٦٨.
Kamen, H.,: Spain ... A Society of Conflict, p. 131.

(10) Esder: The Ottoman Empire from the 15th to the 17th Century. p. 291-295.

(11) Cantemir, D., translated from Latin by Tindal: The Hist of the Growth and Decay of O.E. p. 65-73.

(13) Allen, W.E.D.: The Turks in Europe. p. 91-96.

مصطفى نعيما: تاريخ فيا جـ٢ ص٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٦.

(14) Naima, Translated from the Turkish by Charles Fraser: Annals of the T.E. V. 1, p. 10-12.

(15) Clark, G.: Early modern Europe. ... 73-74 O'Sullivan: The Age of Discovery, p. 23-37.

(16) Ettore Rossi: Storia Di Tripoli ...

تقريب خليفة التليسي: ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١ ص١٣٧ ـ ١٤٧.

(18) Budge: A Hist. of Eth. p. 330-340.

(19) Clark: Early mod. Euorope. p. 74.

(20) Jacob, S. Hist. of the OTT. E. p. 331-335.
Clark, G.: Early mod. Europe. p. 49, 74.

(21) Engelhardt: La Turquie et le Tanzimat, v. 2, p. 30-45.
Shaw, S.: Hist. of the OTT. Empire and modern T. v. 2, p. 55-67.

المصـادر والمراجـع :

١ ـ المجلة التاريخية المغربية
العدد ١٢، يولية ١٩٧٨

٢ ـ الوثائق: مجموعات وثـائقية دوريـة تصدرهـا دار الوثـائق الملكية ـ الـرباط المجمـوعة الأولى ١٣٩٦ ـ ١٩٧٦.

٣ ـ Etton Rossi: Stonia Di Tripoli تقريب خليفة التليسي:
ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١
دار الثقافة ـ بيروت
طبعة أولى ١٣٩٤ ـ ١٩٧٤

٤ ـ أحمد واصف: محاسن الآثار وحقائق الأخبار أو تاريخ واصف.
مطبعة بولاق مصر ١٢٤٣.

٥ ـ أحمد جواد: تاريخ عسكري عثمان
استانبول ١٢٩٩

٦ ـ أحمد راسم : عثمانلي تاريخي
استانبول ١٣٣٠

٧ ـ مصطفى أفندي عبدالله الشهير بكاتب حلبي : تحفة الكبار في أسفار البحار في بيان فتوحات البحر
الأستانة ١١٤١

٨ ـ مصطفى نعيما: تاريخ نعيما استانبول ١٢٨١

9. itlBehman Sapolo Os manli Sultanler استانبول ١٩٦١.

10. Engelhardt: La Turquie et le Tanzinat ou Hist. de Reformes dans L'Empire Ott. depruis 1820 jusqu' à nos jours. Paris 1884.

11. Hammer, M., Treduite de L' Allamand sue deupiéme éditions par M. Dochez: Hist: de L' Empr. Ott. Paris 1844.

12. Allen, W.: The Turks in Europe, London, 1919.
13. Birge, J.: The Bektashi order of Dervishes. Bristol 1937.
14. Budg: A Hist. of Eth.
15. Clark, G.: Early modern Europe. From about 1450 to about 1720, Second Edition. London 1966.
16. Coles, P.: The OTT. impact on Europe.
17. Cantemir, translated from Latin by Tindal: The Hist. of the Growth and Decay of the OTT. Empire. London 1734.
18. Erder: the OTT Empire. from the 15th to the 17th Cent.
19. Kamen, H.: Spain 1469-1714. A Society of Conflict, 1983.
20. Lybyer, A.: The Government of the OTT.Empire. in the time of Sulieman the magnificent. 1913.
21. Naima: Translated from the Turkish by Charles Fraser: Annals of the Turk. Empr. London 1832.
22. O'Sullivan, D.: The Age of Discovery, 1400-1550. 1984.
23. Shaw, J.: Hist. of the OTT. Empr. and Modern Turkey. V. 1, 2. Camb. Univ., p. 1977.

من بحوث الأعداد القادمة

● توزيع الحدائق العامة في المدينة المنورة.

د. محمد شوقي بن إبراهيم مكي.

○ دور الشيخ عز الدين القسام في الكفاح الفلسطيني.

د. حسن صالح عثمان.

● رحلة في تهامة .. وعسير .. وجبال الحجاز.

ترجمة وتحقيق وتعليق د. أحمد بن عمر الزيلعي.

○ النمو السكاني والعمراني لمدينة الرياض.

د. عبد الرحمن صادق الشريف.

● من مجيء الخبر على خلاف ظاهر الحال في القرآن الكريم.

د. عبده عبد العزيز قلقيله.

○ العلم رحم بين أهله.

أ. عبدالله حمد الحقيل.

● الزلازل والبراكين في جزيرة العرب وتراثهم.

د. محمد محمود محمدين.

The Ottoman State in defence for the Arabs:

Spain had occupied “Tripoli” from 916-1510 with an overwhelming celebration in Europe, especially in Southern Italy.

Charl V had even thought to invade Africa and penetrate into the continent from North to South. With the Ottomans’ advance to the Balkans, the conflict between Islam and Christianity had reached its climax.

North Africa had, thus, become the target of all those who sought to impose their suzeraînty over the Midetteranean Sea.

It was only the Ottoman State that had to confront the European challanges at the time.

In fact, however, the Ottoman State had spared no effort in restoring ‘Tripoli’. It had, also, shown fruitful results in protecting the Islamic countries in Central Africa against the precarious Crusades.

It is relevant to refer,here, that the first Ottoman State was largely built up on an Islamic basis.

By the end of Suleyman I reign, the Ottoman State witnessed the peak of grandeur and expansion. Not to froget that the Ottoman protraction had reached the Centre of the European Continent.

It is interesting to note, too, that the period of weakness and collapse began with the Ottomans’ divergence from the Islamic ruling laws.

The Second Ottoman State had marked a fundamental change of the Ottoman ruling system due to the internal troubles from which the State began to suffer during Sultan Abdul Majeed’s reign.

Europe, benefitting from these internal problems, began to press upon the Sultan to issue sanctions discrepant with the State’s main policy. ●●●

Significantly, the centre of power, then, had no longer existed in Asia, it moved forward to Anatolia.

'Janissary' Corps [New Force]:

This army was built up and organized as a new force 'Yeni Çeri' under Orhan's control.

It is not true that Christians were oppressively compulsed to join the Janissary Corps.

In his book 'History of the Ottoman Turks' Creasy puts it that Christians were never oppressed. They were only encouraged to convert to Islam. Most Christian families offered their sons willingly in the hope of gaining official posts in the State.

As a true Islamic State, the Ottoman State had been founded on three bases: the Sultan, the Ulema and the soldiers.

The most important feature of the Ottoman State was that previleges were never allowed among the subjects of the State i.e. all people were equal.

The 'Ulema' had acquired a special rank owing to the nature of their religious, educational and juristic positions. The 'Mufti', head of Ulema, was remarked as a very eminent figure, second to the Sultan.

It is wrong to believe, then, that the Sultan's power was not limited. For, the nature of the Ottoman System considered the Sultan no more than first among his subjects, governing according to Islamic law.

Signs of decline:

Some serious internal and external problems caused disorder in the financial and economic system of the State. As provincial revenues decreased, the coinage was debased regularly and the State became incapable of settling the slaries of the army forces.

It is of great significance, then, to attach the historical developments of the Ottoman provinces with the economic conditions of the main capital of the State.

Besides, both the Western lack of the Turkish language and their hostile attitude towards Islam are basically responsible for the distortion of the Ottoman history.

Nevertheless, it is essential to note that some Western historians have actually surveyed the Ottoman history in the light of the nature of the Ottoman State without introducing the distortions that prevailed in much of the Western view towards the Ottomans.

Some Western historians, however, went so far to assume that the Ottoman existence in the Arab World had had its imperialistic nature. Such an assumption is deliberately circulated with the intention of distorting the history of the Ottoman State. It was the Ottoman State that had spurred efforts in defence for the Arabian peninsula against the Porteguese invasion.

For, the difference lies not so much in religion as it does in the European intervention of the social, economic and political affairs of the Arab occupied lands that reeled under the European influence.

It is clear that we adopt the term "State" instead of "Empire". The latter is generally associated with 'imperialism' either in ancient or recent times.

It is also, necessary to consider, here, the connotations of the words: Turks', 'Ottoman Turks' and 'Ottomans'. The first is related to the geographical entity, the second is connected with a geo-historical aspect, while the third is only pertinent with history. The latter means all those who were subjected to the Ottoman State, regardless of their race, religion or language.

The change of 'Bursa' as the capital of the State with 'Istanbul' meant that the State had become 'Anatolic, Balkanic' or 'Asiatic, European'.

Some Characteristics of the Ottoman History and Civilization

A Study Prepared by Dr. Mohammad Abdul Lateef Al-Bahrawi.
Abridged and translated by: Mr. Abdul Salam Abdul Moneim.

The history of the Ottoman State has had its intrinsic significance as a great Islamic phenomenon in modern history. It stands as a long and wide experience manifested through the Islamic conquests of the Ottomans into Europe. It is, also, a unique experience of putting the Islamic juristic laws into practice in modern times.

Even at the time of its weakness and collapse, Islam supplied it with both force and cohesiveness.

It is preferable to concentrate, from the very beginning, on the points pertinent with the major problems of the second Ottoman period, with a special stress laid on the Turkish connotations, since they help us conceive the Ottoman systems.

Therefore, the history of the Ottoman State must be studied through the nature of the State itself as being composed of some basic elements, one of which was the flood of human immigrations from Central Asia. Moving towards the West was a characteristic of most of the Ottoman conquests.

Historically speaking, since the decline of the Ottoman State caused a wide open door penetration of the European imperialism into the Arab World; together with an intellectual invasion, it is evident that the Ottoman history has always been discussed from the European perspective, through the light of the European prejudice.

Cover Picture:

Jerusalem
is Calling

The writers' views do not necessarily reflect those of the magazine.

Articles are arranged technically regardless of the writer's prestige.

Annual Subscriptions :

- Saudi Arabia : 20 Riyals.
- **Arab Countries :** The equivalent of 4 issues price.
- **Non-Arab Countries :** US 6 $.

Articles can not be returned to authors whether published or not.

● PRICE PER ISSUE ●

– Saudi Arabia	:	**3** Riyals
– U. A. E.	:	**4** Dirhams
– Qatar	:	**4** Riyals
– Egypt	:	**40** Piastres
– Morocco	:	**5** Dirhams
– Tunisia	:	**400** Milliemes
– Non-Arab Countries	:	**1** U.S. $

Saudi Arabia : Al-Greisy Distributing Est.,
P.O. Box 1405, Riyadh, Tel.: 4022564.

Abu-Dhaby : P.O. Box 3778, Abu Dhaby,
Tel.: 323011.

Dhubai : Dar-Al-Hikma Library.
P.O. Box 2007, Tel.: 228552.

Qatar : Dar-Al-Thakafa.
P.O. Box 323, Tel.: 413180.

Bahrain : Al-Hilal Distributing Est.,
Manama, P.O. Box 224, Tel.: 262026.

Egypt : Al-Ahram Distributing Est.,
Al-Gataa Street, Cairo, Tel.: 755500.

Tunisia : The Tunisian Distributing
Company 5, Nahg Kartaj.

Morocco : Al-Sharifia Distributing Company,
P.O. Box 683, Casablanca, 05.

EDITOR-IN-CHIEF

MOHAMMAD HUSSEIN ZEIDAN

□□□

EDITORIAL BOARD

DR. MANSOUR IBRAHIM AL-HAZMI
ABDULLAH ABDUL-AZIZ BIN EDRIS
DR. ABDUL-RAHMAN AL-TAYYEB AL-ANSARI
DR. ABDULLAH AL-SALEH AL-UTHAYMIN
DR. MOHAMMAD AL-SULAYMAN AL-SUDAIS

□□□

EDITORIAL AND TECHNICAL SECRETARY.

MOUSTAFA AMIN JAHEEN

All correspondence should be directed to the Editor-in-Chief. Tel.: 4417020
Editorial Director: Tel.: 4414681

General Supervisor :

His Excellency Prof.

Dr. Abdul Aziz b. Abdullah Al-Khwaiter
Minister of Higher Education & Head of the Board of Directors of King Abdul-Aziz Research Centre.

* * *

Members of the Board :

- **His Excellency Mr. Abdul Aziz Al-Refaey.**
- **H.E. Mr. Abdullah Bin Khamis.**
- Dr. Ahmed M. Al-Dhubaib Deputy-Rector of King Saud University.
- H.E. Dr. Abdul Rahman Bin Saleh Al-Shebaily. Deputy Minister for Higher Education.
- **H.E. Dr. Abdullah Al-Masri** Assistant Deputy Minister for Cultural Affairs, **Ministry of Education.**
- H.E. Mr. Abdul Rahman Fahd Al-Rashid,
- **Assistant Deputy Minister For Domestic Information. Ministry of Information.**
- **H.E. Mr. Muhammad Hussein Zeidan.**
- **H.E. Mr. Abdullah Hamad Al-Hoqail** «Secretary-General of King Abdul Aziz Research Centre **and Director General of ADDARAH».**

Annual Subscriptions are to be directed to the Secretary General of-Addarah Tel. 4414681
Editorial Board . Tel : 4412316 - 4412317

IN THE
NAME OF ALLAH.
THE MERCIFUL.
THE BENEFICENT

An Academic Quarterly
Issued by: King Abdul Aziz Research Centre

No. 4 • Year 13 • Rajab 1408 A.H • February 1988 A.D.

King Abdul Aziz Research Centre

— Established by a Royal Decree No. M/ 45 dated 5/8/1392 A.H. as an autonomous body with independent jurisitic identity.

— Run by a Board of Directors vested with full authority to have its objectives materialized.

Objectives:

— To further studies pertaining to the history of the Kingdom, its geography, literature, intellectual and cultural heritage in particular as well as those of the Arab and Islamic world in general.

— Issue a cultural magazine carrying its name, **ADDARAH.**

— In accordance with the Royal approval No. 5/12608 dated 20/5/1396 A.H. the Centre has become the home of the National Saudi Archives and Manuscripts.

P. O. Box 2945 Riyadh 11461 Kingdom of Saudi Arabia

Facsimile No.: 00/966/1/4417020